Political Discourse Techniques of Abdullah ibn Abbas (Analytical Study)

Dr. Atheer Hameed Mohammed
University of Basrah / College of Humanities Education
E-mail: atheer.hameed@uobasrah.edu.iq

Abstract:

Speech is the fundamental means of communication between speakers, setting one apart from the others. This is why Abdullah ibn Abbas was chosen as the subject of this research, given his distinctiveness and his ability to communicate and persuade his audience. Moreover, the diverse techniques he employed in conveying his message to the recipients of his discourse, whether it was to affirm the legitimacy of Imam Ali ibn Abi Talib (peace be upon him) and the necessity of following him and obeying his commands and prohibitions, by motivating and urging them towards jihad and joining their Imam, or to expose the dissenters of the Imam and discredit them with logical and textual evidence. He utilized various rhetorical techniques in presenting and delivering the news and messages he wanted to convey to the recipients during that period, making his discourse a historical document that documented the events, arguments, and evidence he aimed to document. This was achieved through various methods, which we will discuss in the details of our research paper.

Key words: Techniques, Political Discourse, Abdullah ibn Abbas.

أساليب الخطاب السياسي عند عبدالله بن عباس
((دراسة تحليلية))

المدرس الدكتور أثير حميد محمد
جامعة البصرة / كلية التربية للعلوم الإنسانية
E-mail: atheer.hameed@uobasrah.edu.iq

الملخص:

يُعد الخطاب الوسيلة الأساس للتواصل بين المتخاطبين، وهو ما يميز أحدهم عن غيره؛ الأمر الذي لأجله تم اختيار عبدالله بن عباس موضوعا للبحث لما عُرف عنه من تميز وقدرة على المخاطبة وإقناع المخاطبين فضلا عن الأساليب المتنوعة التي اعتمدها في إيصال ما أراد للمتلقين للخطاب سواء أكان إثباتاً لأحقية الإمام علي بن أبي طالب(ع) وفي وجوب اتباعه والتزام أوامره ونواهيه من خلال استنهاضهم وحثهم على الجهاد والخروج مع إمامهم، أم تقريع المخالفين للإمام وفضحهم بالأدلة والشواهد العقلية والنقلية، فقد عمد إلى توظيف الأساليب البلاغية المتنوعة في عرض وتقديم الأخبار والرسائل التي أراد إيصالها للمتلقين في تلك الحقبة من الزمن فضلا عن جعله الخطاب وثيقة تاريخية توثق الأحداث والحجج والبراهين التي عمد على توثيقها، معتمدا في ذلك أساليب مختلفة سنأتي عليها في ثنايا ورقتنا البحثية هذه.

الكلمات المفتاحية: الأساليب، الخطاب السياسي، عبد الله بن عباس.

الخطاب السياسي:

الخطاب السياسي هو تناول موضوع معين يُعنى بشأن من شؤون الدولة وعلاقاتها، فضلا عن رسم العلاقات التي تربط هذه الدولة بالدول الأخرى .

وفي معظم الأوقات نجد هناك من يتصدى لهذا الخطاب من قيادات الدولة ورجالاتها، أو من يخول للتحدث باسم دولة ما، وفي هذا نجد ابن عباس ذا مواقف عدة نذكر منها، ما كتب له الإمام علي(ع) بقوله:((أما بعد فاشخص إلي بمن قبلك من المسلمين والمؤمنين ، وذكرهم بلائي عندهم ، وعفوي عنهم في الحرب، وأعلمهم الذي لهم في ذلك من الفضل والسلام))[١].

فلما وصل كتابه إلى ابن عباس حتى قام في الناس فقرأ عليهم الكتاب وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ((أيها الناس: استعدوا للشخوص إلى إمامكم، وانفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ، فإنكم تقاتلون المُحِلين القاسطين، الذين لا يقرأون القرآن ولا يعرفون حكم الكتاب، ولا يدينون دين الحق ، مع أمير المؤمنين وابن عم رسول الله، الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، والصادع بالحق، والقيم بالهدى، والحاكم بحكم الكتاب ، الذي لا يرتشي في الحكم، ولا يداهن الفجار ولا تأخذه في الله لومة لائم))[٢]. خطبة ابن عباس هنا سياسية تبين موقفه من فتنة معاوية، فبعدما وصلته رسالة الإمام علي (ع) وقف في الناس خطيباً ليبين موقفه السياسي المؤيد للإمام وليحث الناس على نصرته والوقوف معه ليُعلم القارئ أن الغاية لم تكن الحرب والاقتتال بين المسلمين بل أراد من خلالها أن تكون((وسيلة ضغط حتى يرجعوا عن غيهم فالحرب إذن هي في خط الدعوة والهداية))[٣]. يبدأ خطابه بقوله:(أيها الناس) وهو طلب الإصغاء والاستماع إليه، هذا الخطاب يكون لعامة الناس ومؤيديهم وغيرهم ، المؤمنون منهم ، وغير المؤمنين ، وهو خطاب عام شامل غير محدد ولا مخصص.

بعد ذلك يبدأ خطابه بمجموعة من أفعال الأمر، والأمر هو أحد الأساليب الإنشائية الطلبية المهمة التي وردت في خطابه لجأ إليها ليعبر عما يكنه في داخله من انفعالات وهو:((طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، أو هو... صيغة تستدعي الفعل، أو قول ينبئُ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء))[٤] ، والأصل في الأمر الإيجاب أي طلب على وجوب اللزوم ، وهذا هو معناه الأصلي الذي يتفق عليه الجميع ، وقد يكون الطلب لا إلزام فيه إذا دخل في النصيحة الخالصة ، وهذا يكون في معظم الأحيان في مضامين النصح والإرشاد، فضلا عن ذلك يكون الخطاب السياسي في أغلب الأحيان خطاباً موجهاً من أعلى إلى أدنى كونه يصدر من الشخص المسؤول عن أمور الدولة الذي له الأمر والنهي ، عليه نجد ابن عباس يتصدى لهذا الموضوع بصفته ممثلاً عن الإمام علي(ع) .

نجد أن الخطيب قد عمد إلى الأمر بالقتال والحث عليه بأفعال الأمر فضلا عن بيان حال من سيقاتلون وصفاتهم، وقد وردت أفعال الأمر (استعدوا – انفروا – جاهدوا) فالخطاب هنا جاء من الأعلى

(ابن عباس) إلى الأدنى وهم عامة الناس فيأمر المسلمين منهم والمؤمنين على حدٍ سواء بالاستعداد للوقوف مع إمامهم علي(ع) ، وان ينفروا جميعاً في سبيله ، ويأمرهم بالجهاد في كل ما يملكون ، بعد ذلك ينتقل الى(النفي)، لينفي عن أعداء الإمام (ع) كل صفة حميدة يتصف بها المسلم الحق ، موظفاً بذلك أداة النفي(لا)، والنفي ((خلاف الاثبات، ويسمَى كذلك الجحد...))[٥] ، كذلك هو((الإخبار عن ترك الفعل))[٦]، فقد وظف ابن عباس النفي ليخبر الناس في خطابه عن صفات من يقف بالضد من الإمام علي(ع) بقوله:((لا يقرأون القرآن ، ولا يعرفون حكم الكتاب ، ولا يدينون دين الحق)) ، فباعتماده أسلوب النفي هنا قد جردهم من صفات المسلمين ، بعد ذلك يسترسل في الكلام لكن مادحاً للإمام ذاكراً صفاته موظفاً النفي في أخبار المتلقي صفات الإمام بقوله: (لا يرتشي في الحكم، ولا يداهن الفجار، ولا تأخذه في الله لومة لائم)، فالنفي في هذا الموضع اثبت للإمام علي صفات الإمام الحق الذي يستحق الإمامة ، بعدما نفى عنه صفات لا تليق بوصف الإمام ومكانته التي عُرف بها ، ومن ثم يبين صفاته ويذكرها بقوله:(أمير المؤمنين– ابن عم رسول الله– الناهي عن المنكر– الصادع بالحق – القيم بالهدى – والحاكم بحكم الله)، فهو يعمد الى استعمال النفي في إثبات صفات الإمام علي(ع) بالمقابل الى تجريد مخالفيه ومنكريه من صفات الإسلام وما يفترض ان يتصفوا به من صفات ، وهنا يمكن القول إن ابن عباس يلجأ إلى أسلوب المقابلة غير المباشرة بين الإمام ومخاصميه .

فضلاً عن ذلك فقد وظف ابن عباس اقتباساً قرآنياً لدعم خطابه وتقويته، وذلك انعكاساً لثقافته الدينية والقرآنية الواسعة، فلا عجب وهو حبر الأمة وقد دعا له الرسول(ص) بقوله: اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل، كذلك يُعد الاستشهاد بالآيات القرآنية، من أبرز الملامح الفنية للخطابة النبوية، إذ كان الرسول (ص) هو الرائد الأول في تضمين جل خطبه آيات بينات من القرآن الكريم .

وقد وظف ابن عباس (الاقتباس القُرآني) ويُعرف الاقتباس بـ((أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية ، أو آية من آيات كتاب الله خاصة...والمُباح منه ما كان في الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبي(ص) ونحو ذلك))[٧]، والاقتباس هنا جاء في قوله:(وأنفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم)، هذا الاقتباس حرفياً ونصياً من قوله تعالى:((انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون))[٨]، هذا الاقتباس من القرآن الكريم ليقوي به موقفه وحجته ويضيف إليه صبغة دينية وقدسية للتأثير في المستمعين فضلاً عن بيان ثقافته الدينية ولاسيما القرآنية منها التي لا تحتاج إلى شواهد، وقد أشرنا إليها فيما تقدم، فالخطاب بشكل عام كان فيه موقف سياسي لنصرة الإمام علي وأحقيته بالخلافة .

وقد صور ابن عباس أصحاب الإمام وتقاعسهم عن نصرته، بعد أن كتب له الإمام(ع) أن يُعين رجلا من قبله، فاختار الأحنف بن قيس وأمر الناس بالمسير معه، فشخص منهم ألف وخمسمائة رجل،

فلما رآهم ابن عباس قام بهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:((يا أهل البصرة:قد جاءني كتاب أمير المؤمنين يأمرني بإشخاصكم، فأمرتكم بالمسير إليه مع الأحنف بن قيس، فلم يشخص إليه منكم إلا ألف وخمسمائة، وأنتم في الديوان ستون ألفاً، سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم، ألا فانفروا، ولا يجعل امرؤ على نفسه سبيلاً، فإني موقع بكل من وجدته تخلف عن دعوته، عاصياً لإمامه، حُزناً يُعقِبُ ندماً ، وقد أمرت أبا الأسود بحشدكم، فلا يلم أمرؤ جعل السبيل على نفسه إلا نفسه))[٩]، يفتتح ابن عباس خطبته في أهل البصرة بالنداء مستخدماً الأداة (يا)، والنداء هو من الأساليب الإنشائية الطلبية الأكثر دورانا في خطب ابن عباس، وقد جاء هذا الأسلوب في بداية الجمل في أكثر خطبه، ويُعد النداء وسيلة خطاب مباشرة إلى المتلقي، وقد عرف بأنه:(طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرفٍ نائب مناب(أُنادي) المنقول من الخبر إلى الإنشاء، وهو خطاب بكل تأكيد، وهذا كثير الدوران في كلام العرب، فبالإضافة إلى وظيفته الأساس، فهو أشبه ما يكون بالتنبيه الذي يقصد تنبيه المخاطب ليلفت نظره ويدعوه للتركيز لما بعد هذا النداء))[١٠]، فالنداء هنا جاء لأهل البصرة ليطلب منهم الشخوص والوقوف مع الإمام علي بعد أن وصله كتابه، فيأمرهم بالمسير مع الأحنف بن قيس أبو بحر، لكن لم يشخص معه إلا ألف وخمسمائة من بين ستين ألف شخص في البصرة ، وبعدها يحذر من تخلف عن الأمر واصفا إياه بأنه عاصٍ لأمر الإمام علي(ع)، لذا فهو يعمد إلى ترهيبهم بوصف من تخلف منهم بالعاصين ولاسيما أن عصيانهم سيوصلهم للحزن والندم يوم لا ينفع الندم كونهم قد تخاذلوا عن نصرة الحق.

وبهذا نجد الخطاب السياسي عند عبدالله بن عباس قد حمل لغة عالية في نصرة الإمام ، وشحذ الهمم للشخوص أمامه والوقوف معه وذلك عن طريق بلاغته وتأثيره البلاغي في قلوب السامعين.

ومن النماذج الأخرى التي استوقفتنا عندما أجمع أهل العراق على طلب أبي موسى الأشعري وأحضروه للتحكيم على كره من الإمام علي(ع)، أتاه عبدالله بن عباس وعنده وجوه الناس وأشرافهم، فقال له:((أبا موسى: إن الناس لم يرضوا بك ، ولم يجتمعوا عليك، لفضل لا تشارك فيه ، وما أكثر أشباهك من المهاجرين والأنصار المتقدمين قبلك، ولك أهل العراق أبو إلا أن يكون الحكمُ يمانياً ، ورأوا أن معظم أهل الشام يمان، وأيم الله إني لأظن ذلك شراً لك ولنا، فإنه قد ضم إليك داهية العرب، وليس في معاوية خلة يستحق بها الخلافة ، فإن تقذف بحقك على باطله، تدرك حاجتك منه، وإن يطمع باطله في حقك يدرك حاجته منك، وأعلم يا أبا موسى أن معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب ، وأنه يدعي الخلافة من غير مشورة ولا بيعة ، فمن زعم لك أن عمر وعثمان استعملاه ، فلقد صدق واستعمله عمر وهو الوالي عليه بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهي، ويؤجره ما يكره ، ثم استعمله عثمان برأي عمر، وما أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة، وأعلم أن لعمر مع كل شيء يسرك خبأ يسوءك، ومهما نسيت فلا تنس أن علياً بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وأنها بيعة هدى، وأنه لم يقاتل إلا العاصين

والناكثين))[١١] ، يتضح من خلال الخطاب السابق لابن عباس بأنه يمتلك طاقات تعبيرية تمكنه من قلوب المتلقين واستمالتهم إليه، نلاحظ هذا الخطاب الذي يحمل الحض والتوجيه لأمر مصيري يخص الدولة من جانب ويخص أحد رجالاتها وهو مقبل على أمر لا يعرف عواقبه ، مع العلم إنه يشير بقوله:(وأيم الله إني لأظن ذلك شراً لك ولنا) وهذا الظن بمعنى اليقين كون ابن عباس متيقناً من نتائج التحكيم ولاسيما إنه يعلم من ملاقيه (فإنه قد ضم إليك داهية العرب) فهو داهية بالغدر والحيلة .

فضلاً عن ذلك فهو يعمد إلى أسلوب المقابلة عندما يذكر(وليس في معاوية خلة يستحق بها الخلافة– إن معاوية طليق الإسلام – وأنه يدعي الخلافة من غير مشورة ولا بيعة) في مقابل ذلك (أن علياً بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان – وأنها بيعة هدى – لم يقاتل إلا العاصين والناكثين) فمن بايعه القوم لا يقابل بمن يدعي الخلافة ومن كان طليق الإسلام لا يقابله من لم يسجد إلا لوجه الله فقد كرم الله وجهه وهذا لا خلاف فيه أو عليه، لقد عمد لهذا الأسلوب ليبين أحقية الإمام التي لا تحتاج بينة قال الشاعر:

ومحال أن تُلبس الشمس ثوباً أو تسكب البحر في أقداحِ[١٢]

ما تقدم كلها أخبار قدمها ابن عباس وهي واضحة للمتلقي ولاسيما من كانوا على مسمع منه وفي الواقع فهذه وثيقة تاريخية يعاب عليها إن لم تطابق الواقع لكنه كان على ثقة من علم السامعين والمتلقين بحقيقتها وصدقها، فالأخبار الحقيقية أن معاوية طليق الإسلام، وأنّ أباه رأس الأحزاب وادعائه الخلافة من غير مشورة ولا بيعة، بالمقابل ما ذكرناه عن أخبار الإمام علي(ع)، هذا ما جعل من الخطاب له الأثر الواضح في تغيير تفكير أبي موسى، فأسلوب ابن عباس وما كان من وسائل الإقناع التي وظفها من خلال ذكر الحقائق والمقابلة بينها فيما يخص الطرفين المتخاصمين جعلت أبا موسى يقتنع ويعترف ليجيبه بقوله :

(رحمك الله، والله ما لي إمام غير علي، وإني لواقف عند ما رأى، وإن حق الله أحب إلي من رضا معاوية وأهل الشأم، وما أنت وأنا إلا بالله)[١٣].

نلاحظ مما تقدم إن سلاسة الخطاب وتسلسله ودقته والحقائق التاريخية التي جاء بها وطريقة عرضها وأسلوبه الذي اكتسى ثوب النصح والإرشاد، كل ذلك وصل لقلب المتلقي وأثر فيه، وهذا ما يدل على أن اللغة السهلة الواضحة تتماشى مع الخطاب الاجتماعي وتتماشى معه اللغة السهلة وأساليب عرضها المدعمة بالشواهد والأدلة التي تثبت الحق لمستحقه.

فضلا عن ذلك فقد وظف أسلوب التوكيد الخبري في أكثر من موضع وهو يتمثل بـ(أنّ التوكيد) ، والتوكيد من أهم الأساليب الخبرية التي يوردها في مواضعها ومناسباتها المُعدة لها، وكذلك من أجل إعطاء الكلام قوة تأكيدية أكبر تعمل على إزالة الشك، ذلك كون((المخاطب يكون متردداً في الخبر، طالباً

الوصول إلى اليقين في معرفته،وفي هذه الحالة يستحسن توكيد الكلام ليتمكن من نفس المخاطب ويطرح الخلاف والتردد وراء ظهره))[١٤]،وقد يلجأ لتوكيد الخبر((لشرف الحكم وتقويته، مع أنّه ليس فيه تردد ولا إنكار))[١٥] ، فقد كرر أنَّ التوكيدية في مواضع عدة(أنَّ معاوية– أنَّ أباه) ذلك ليكسب الخطاب صبغة بلاغية تعطي قوة تأكيدية للخبر الذي يورده .

ومن الخطب السياسية التي تحمل معالم اجتماعية لابن عباس والتي تحمل مدلولاً سياسياً ، خطابه لمعاوية وجها لوجه فقال لهُ:((لو ولينا أحسنا المواساة، وامتنا لالأثرة، ثم لم نغشم الحي، ولم نشتم الميت، فلست بأجود منا أكفّا، ولا أكرم أنفساً، ولا أصون لأعراض المروءة ، ونحن والله أعطى للآخرة منكم للدنيا، وأعطى في الحق منكم في الباطل، وأعطى على التقوى منكم على الهوى، والقسم بالسوية والعدل في الرعية يأتيان على المنى والأمل، ما أرضاكم منا بالكفاف، فلو رضيتم منا لم نرضَ بأنفسنا به لكم، والكفاف رضا من لا حق له، فلا تُبخلونا حتى تسألونا، ولا تَلفظونا حتى تذوقونا))[١٦] .

يبدأ ابن عباس خطابه بتمني ما لم يتحقق وهي الولاية، فهي بيد من لم يستغلها لخدمة الناس والمجتمع (معاوية) فهو في افتتاح الخطاب مالو سُلمت لهم أم كانوا هم القائمون عليها لأحسنوا وأنعموا بما فضلهم الله به على رعاياهم ومن يتبعهم، ثم لم نغشم أي لا نظلم الأحياء منهم ولا الأموات، فظلمهم الأحياء بأن ساقوهم إلى الهاوية كونهم ظلوهم عن طريق الحق باستمالتهم بالأموال فضلا عن الترهيب للأمر الذي جعلهم ينساقون للباطل ويتمسكون به ويتركون الصراط المستقيم وطريق الحق، أما شتمهم الميت فهو يشير إلى شرعنتهم وتأييدهم وتحريضهم على سب الأموات في إشارة إلى سبهم الإمام علي(ع) على المنابر قال رسول الله(ص) من سن في الإسلام سنة حسنه فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة راجع النص ....

ثم ينتقل إلى قوله:(فلستم ... بأجود .. أكُفّا) (أكرم أنفساً) ولا (أصون)، نلاحظ أن ابن عباس قد عمد إلى توظيف اسم التفضيل لبيان أفضليتهم على معاوية وأتباعه، وهو من الأساليب التي تدل على إمكانيات ابن عباس الخطابية .

فضلا عن ذلك فهو يكرر اسم التفضيل(أعطى) بقوله:(أعطى للأخرة – أعطى في الحق – أعطى على التقوى) إن العطاء الذي يقدمه الإنسان للآخرة هو ما يصل به إلى الحق الذي هو نجاة للإنسان ولاسيما المؤمن كونه مفتاحاً لكل خير وصلاح وهو باب التقوى ولا يدخل الإنسان التقوى إلا من باب الحق فهو مفتاح كل غنيمة وفلاح .

بعد ذلك يختتم ابن عباس خطابه بالاستعارة المكنية والترصيع فهو يقول:((فلا تُبخِلُونا حتى تسألونا، ولا تُلفِظُونا حتى تذوقونا))، فقد رصع ابن عباس بين كلمتي(تبخلونا وتسألونا) وبين (تلفظونا وتذوقونا) ، وهذا ما أضاف للنص جمالية وبلاغة فضلاً عن إضافته موسيقى زادت من وقع الخطاب وتأثيره

وانسيابيته، لاسيما أن الخطاب ليس خطابا سياسيا أو دينيا إنما هو اجتماعي بين رجلين أراد ابن عباس إظهار الحق ببلاغة لسانه وقوة حجته، فيقول: لا تبخلونا أي لا تصفونا بالبخل ولنا أكثر من الذي لكم فلنا ضعفي الذي لكم من أموال المسلمين بالمقابل لا نأخذ منها إلا النزر اليسير وأنتم تستحوذون على أضعاف مضاعفة مما تملكون الحق به، ويذكر ابن عباس في موضع آخر عن الموضوع نفسه قوله(وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين، ولنا في كتاب الله حَقان : حق في الغنيمة وحق في الفئ ...)[١٧] مع هذا أنت تستحوذ على أموال المسلمين وخيراتهم وتستمتع بها وتعطي لنفسك الحق بما ليس لك مع العلم أن لنا به أكثر منك، مع هذا لا ترفضونا أو تصفوننا بأوصاف قبل أن تجربونا ، ابن عباس هنا يفاخر معاوية ليدحض أحقيته بالمُلك.

مثل هذا الخطاب لا يصدر إلا من شخصية قوية بإيمانها واثقة من نفسها لا تأخذها بالحق لومة لائم وقد واجهه ابن عباس في أكثر من مناسبة، إذ نجده يواجهه دون خوف أو تردد ويضيف له (أكفاك أم أزيدك) رد عليه معاوية قائلاً:(كفاني فإنك لا تُعزُّ ولا تُشجُّ)[١٨] والمراد منه لا تُغلب ولا تُهزم .يضاف إليها مواقف أخرى(أقصد رقم الصفحات فقط في الهامش) .

وقد وجدنا نوعاً من الخطاب السياسي ألبسه ابن عباس الجانب الوعظي، إذ إن المقصود بالوعظ والموعظة((تذكير بالخير فيما يرق له القلب ...والموعظة هو بيان الذي تلين به النفس ويرق له القلب ، لما فيه من صلاح حال السامع من الخبر والعبر ، وجمل الثناء ومحمود الأثر))[١٩] .

وقد أمرنا الباري عز وجل بالوعظ في أكثر من آية ، قال تعالى:((ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة))[٢٠] ، وقوله في آية أخرى((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون))[٢١]، كون الذي يقوم بفعل الوعظ يبين شرع الله للناس ويصلح به دنياهم وآخرتهم ، ويربي وجدانهم، ويهذب نفوسهم ، ويرشدهم إلى طريق الفوز، والخروج من آلام هذه الحياة .

وفي ضوء ذلك لا يخرج الوعظ عن معنى إسداء النصح والإرشاد في مجال الدين والدنيا ، لتستقيم أمور حياة المتلقي لهذا النصح، وتلك الإرشادات الغاية منها تقويم حياة الناس الدينية والدنيوية ، في سياق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فقد خطب بالناس في صفين، فقال:((الحمد لله رب العالمين الذي دحا تحتنا سبعاً، وسمك فوقنا سبعاً، وخلق فيما بينهن خلقاً، وأنزل لهم فيها رزقاً، ثم جعل كل شيء يبلى ويفنى غير وجهه الحيّ القيوم الذي يحيى ويبقى، إنّ الله بعث أنبياءً ورسلاً، فجعلهم حججاً على عباده عذراً ونذراً، لا يطاع إلا بعلمه وإذنه، يمن بالطاعة على من يشاء من عباده، ثم يثيب عليها، ويعصى فيعفو ويغفر بحلمه ، لا يقدّر قدره، ولا يبلغ شيء مكانه، أحصى كل شيء علماً، ثم أني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ

محمداً عبده ورسوله(ص)، إمام الهدى والنبي المصطفى، وقد ساقنا قدر الله إلى ما قد ترون حتى كان فيما اضطرب من حبل هذه الأمة ، وانتشر من أمرها، أن ابن آكلة الأكباد قد وجد من طغام أهل الشام أعواناً على علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله(ص) وصهره ، وأول ذكر صلى معه ، بدري قد شهد مع رسول الله (ص) كل مشاهده التي فيها الفضل، ومعاوية مشرك كان يعبد الأصنام، والذي ملك الملك وحده، وبان به وكان أهله، لقد قاتل علي بن أبي طالب(ع) مع رسول الله ص وهو يقول: صدق الله ورسوله ، ومعاوية وأبو سفيان يقولان : كذب الله ورسوله، فما معاوية في هذه بأبرّ ولا أتقى ولا أرشد ولا أصوب منه في تلكم، فعليكم بتقوى الله والجد والحزم والصبر، والله إنا لنعلم إنكم لعلى الحق، وأن القوم لعلى الباطل، فلا تكونن أولى بالجد في باطلهم منكم في حقكم، أما والله إنا لنعلم إن الله سيعذبهم بأيديكم أو بأيدي غيركم . اللهم ربنا أعنا ولا تخذلنا، وانصرنا على عدونا، ولا تخل عنا، وافتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أقول قولي واستغفر الله لي ولكم))[٢٢] .

يبدأ ابن عباس خطبته بالحمد لله بمدخل ومقدمة فيها تضمين لآيات قرآنية ، كالأرضون السبع والسماوات السبع قال تعالى((الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ...)) [٢٣]، وخلق الخلق وبسط الأرزاق لهم قال تعالى((يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيءٍ عليم))[٢٤] العنكبوت، ثم جعل الموت والفناء قال تعالى((كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام))[٢٥] ، وقال تعالى((الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً))[٢٦] ، والحي القيوم قال تعالى:(الله لا إله إلا هو الحي القيوم)[٢٧]، وبعث الأنبياء والرسل (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)[٢٨] .

نلاحظ الأثر القرآني والثقافة الدينية التي وظفها ابن عباس فهو يعمد إلى الأسلوب السهل الممتنع البعيد عن الغرابة في الألفاظ والتراكيب الصعبة ليُوصل المعاني التي يريدها بيسر وسهولة وسلاسة لتصل قلب المتلقي وتؤثر فيه وتأخذ بمجامع قلبه وتستميل مشاعره .

ثم يشير إلى رحمة الله تعالى بالعباد ورأفته بهم بقوله(ويعصى فيعفو ويغفر بحلمه) وهذا يذكرني بمضامين دعاء الافتتاح في الموضع(اللهم إن عفوك عن ذنبي وتجاوزك عن خطيئتي، وصفحك عن ظلمي وسترك على قبيح عملي وحلمك عن كثير جُرمي عندما كان من خطأي وعمدي ...)[٢٩] فالله سبقت رحمته غضبه فلا يقابل الخطأ إلا بالعفو والمغفرة فهو الرحمن الرحيم .

في هذه الخطبة نجد ابن عباس قد توجه لحث الناس على اتباع طريق الحق واجتناب من أراد تضليلهم وحرفهم ، فالباطل ترفع عن ذكر اسمه إنما عبر عنه من خلال ذكر كنية أمه، والمتعارف عليه عند العرب إن من أرادوا تصغيره أو استحقاره نسبوه إلى أمه فكيف إذا نسبه إلى كنية أمة التي كانت

وصمة عار في تاريخها فقد نهى رسولنا الكريم عن التمثيل بالميت بل لا يجوز ذلك حتى في الكلب العقور فكيف إذا مُثل بمن كان حبيب رسول الله وسنده بأن يقتل غدراً وتقطع أوصاله وتلوك كبده في فمها ، ذلك إنما يدل على مدى الحقد والكره العلني المصرح به بلا خوف أو حياء، وهذا أسلوب حجاجي لمحاججة المتلقي بنهيهم عن اتباع من أنجبت هذه المرأة وأرضعته، فضلا عن ذلك فهو يعمد إلى وصف أصحابه بالطغام وهم أوغاد الناس وأراذلهم وأوغادهم، وهو في هذا المقام يذكر(من) ويقصد بعض أهل الشام كونه لا يريد شمولهم جميعاً ، ولا سيما أن هذا الوصف قد تكرر تفاصيله نفسها في موضع آخر يقول فيه (ولولا طغامٌ من أهل الشام وقوك بأنفسهم ، وبذلوا دونك مهجهم ، حتى إذا ذاقوا وخز الشغار....)[٣٠] .

نلاحظ من التبعيضية قد سبقت أهل الشام كونه يريد من تطابق فيه الوصف أعلاه .

في مقابل قول معاوية يصف الإمام علي(ع) بأوصافه التي عرفه الناس بها فضلاً عن ذكر أسماء التفضيل للمفاضلة بقوله:(اتقى– أرشد – أصوب) ،

فهو أول من صلى مع الرسول والناس على شركهم وكفرهم، فضلا عن كونه البدري الذي قاتل بين يدي رسول الله في أول نزال ومواجهة بين الإيمان والشرك، وهذه نوع من المقابلة بين صفات الإمام علي وبين معاوية.

ثم يختتم الخطبة بالدعاء وحث الناس على الصبر والتقوى ويلجأ إلى ذكر الحق والباطل، على سبيل التضاد الذي قامت عليه خطبته، فضلا عن استعماله سين الاستقبال لينبأهم أن الله سيعذبهم في المستقبل وهذا الأمر حتمي الوقوع سواء أكان على أيديهم أم على أيدي غيرهم.

الخاتمة:

١- وجد البحث شيوع الخطاب السياسي، حتى وإن جاء بصيغ مختلفة: اجتماعياً ووعظياً وتوجيهياً لكنه في المضمون يرمي من ورائه الوصول إلى أهداف سياسية .

٢- عمد ابن عباس إلى توظيف الاقتباس القُرآني، وذلك لشد المتلقي وإضافة قوة لحجته على الآخر المخالف، فضلا عن بيان لثقافته الدينية المعروفة عنه .

٣- وجد البحث كثرة في استعمال أسماء التفضيل، وذلك لكون ابن عباس يفاضل بين الإمام ومخالفيه ، فاحتاج إلى هذا الأسلوب لبيان أحقية الإمام بالاتباع والنصرة .

الهوامش:

١- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٣٣،ج١،٣٢٦ .

٢- جمهرة خطب العرب ، ١ / ٣٢٦ .

٣- الخطابة الوعظية للإمام علي بن أبي طالب(ع) ، محمد جواد علي البياتي، رسالة ماجستير مقدمة إلى مجلس كلية التربية جامعة تكريت، إشراف الدكتور عبداللطيف حمودي الطائي ، ١٤٢٦ -٢٠٠٥ ، ٧٢.
٤- البلاغة العربية ، د.احمد مطلوب ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ط١ ، ١٩٨٠ ، ٨٨ . أساليب بلاغية، د.احمد مطلوب ، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١ ، ١٩٨٠ ، ١١٠ .
٥- معجم المصطلحات النحوية والصرفية، محمد سمير نجيب اللبدي، مؤسسة الرسالة، دار الفرقان، ط١،١٩٨٥ ، ٢٢٧ .
٦- معجم التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق ودراسة: محمد صدِّيق المنشاوي، دار الفضيلة ، ٢٠٥-٢٠٦ .
٧- خزانة الأدب وغاية الإرب، ابن حجة الحموي ، تقي الدين ابو بكر الحموي الأزراري ، تحقيق : عصام شقيو ، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الاخيرة ٢٠٠٤ ، ج٢ /٤٥٥ .
٨- القرآن الكريم، سورة التوبة ٤١ .
٩- جمهرة خطب العرب، ج١ / ٤١٧ – ٤١٨ .
١٠- اساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين،قيس اسماعيل الاوسي،بيت الحكمة،بغداد ، ١٩٨٨ ، ٢١٨ .
١١- جمهرة خطب العرب، ج١ ، ٣٨٦ .
١٢- ديوان الوائلي، د. احمد الوائلي، المكتبة الحيدرية ، شرح وتحقيق : سمير شيخ الارض، ٧٠ .
١٣- جمهرة خطب العرب، ج١ ، ٣٨٧ .
١٤- علوم البلاغة ،(البديع والبيان والمعاني)، محمد أحمد قاسم ، محيي الدين ديب ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، طرابلس – لبنان ، ٢٠٠٣ ، ٢٧٦ .
١٥- جواهر البلاغة في المعاني والبديع والبيان، السيد أحمد الهاشمي ، تدقيق وتوثيق : يوسف الصميلي، المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت، ٦٠ .
١٦- جمهرة خطب العرب ، ج٢ ، ٩٦ .
١٧- المصدر نفسه، ج٢ ، ٩٧ .
١٨- نفسه .
١٩- الميزان في تفسير القرآن/ العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / ط٢/ بيروت – لبنان/ ١٣٩١هـ – ١٩٧٢ م.
٢٠- سورة النحل ، ١٢٥ .
٢١- آل عمران ، ١٠٤ .
٢٢- جمهرة خطب العرب،ج١ ، ٣٥٠-٣٥٤ . ينظر:شرح نهج البلاغة/ابن ابي الحديد (ت ٦٥٦ هـ)/ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم/مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه/ط٢/ مصر/١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م .
٢٣- سورة الطلاق، ١٢ .

٢٤- سورة العنكبوت، ٦٢ .
٢٥- سورة الرحمن،٢٦ .
٢٦- سورة المُلك، ٢ .
٢٧- سورة البقرة، ٢٥ .
٢٨- سورة الجُمعة، ٢ .
٢٩- مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح .
٣٠- جمهرة خطب العرب ، ج٢ ، ١١٠ .

المصادر :

*** القرآن الكريم :**

*اساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ، قيس اسماعيل الاوسي ، بيت الحكمة ، بغداد ، ١٩٨٨ ، ٢١٨ .
*البلاغة العربية ، د.احمد مطلوب ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، ط١ ، ١٩٨٠ ، ٨٨ . أساليب بلاغية ، د.احمد مطلوب ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط١ ، ١٩٨٠ .
*الخطابة الوعظية للإمام علي بن أبي طالب(ع) ، محمد جواد علي البياتي ، رسالة ماجستير مقدمة إلى مجلس كلية التربية جامعة تكريت ، إشراف الدكتور عبداللطيف حمودي الطائي ، ١٤٢٦ -٢٠٠٥ .
*جمهرة خطب العرب، في عصور العربية الزاهرة ، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت ، لبنان ، ١٩٣٣ .
*جواهر البلاغة في المعاني والبديع والبيان، السيد أحمد الهاشمي، تدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت ، ٦٠ .
*خزانة الأدب وغاية الإرب، ابن حجة الحموي ، تقي الدين ابو بكر الحموي الأزراري ، تحقيق : عصام شقيو ، دار ومكتبة الهلال ، الطبعة الاخيرة ٢٠٠٤ ، ج٢ /٤٥٥ .
*شرح نهج البلاغة / ابن ابي الحديد (ت ٦٥٦ هـ) / تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم / مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه / ط٢/ مصر/ ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م .
*ديوان الوائلي، د. احمد الوائلي ، المكتبة الحيدرية ، شرح وتحقيق : سمير شيخ الارض، ٧٠ .
*علوم البلاغة،(البديع والبيان والمعاني)،محمد أحمد قاسم، محيي الدين ديب،المؤسسة الحديثة للكتاب ، طرابلس - لبنان ، ٢٠٠٣ ، ٢٧٦ .
*معجم التعريفات،علي بن محمد الجرجاني، تحقيق ودراسة:محمد صدِّيق المنشاوي ، دار الفضيلة ، ٢٠٥-٢٠٦ .
*معجم التعريفات،علي بن محمد الجرجاني، تحقيق ودراسة:محمد صدِّيق المنشاوي ، دار الفضيلة ، ٢٠٥-٢٠٦ .
*الميزان في تفسير القرآن/ العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي/ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / ط٢/ بيروت - لبنان/١٣٩١هـ - ١٩٧٢ م.